الرسام العراقي غسان غائب يستعيد سحر الطبيعة

مسكوناً بعصف جمالها يعود الرسام العراقي غسان غائب إلى الطبيعة. معرضه الحالي مطرود من الجنة الذي يقام حالياً في قاعة كريم بالعاصمة الأردنية عمان هو محصلة خبرة تماس مباشر بالطبيعة. خبرة شاركت كل الحواس في صقلها وتأليف فصولها المضطربة. سنة كاملة قضاها الرسام قريباً من القطب الشمالي كانت كافية لشحن مخيلته بصور وأفكار استثنائية من جهة وقعها العاطفي وتاثيرها الحسي عليه. يبدو الرسام كما لو أنه احتفظ بتفاصيل تلك السنة في خزانة سرية وها هو اليوم يفتح تلك الخزانة أمامنا لنكون شهوداً على هواجس رجل قرر أن يروي حكاية طرده من الجنة. غير أن الرسام وهو يسعى إلى تصريف أحوال فتنته لم يتخل عن عاداته الفنية وبالأخص ولعه باستعمال المواد المختلفة على سطح اللوحة. من المؤكد أنه وجد في تحولات البيئة القطبية بتأثير المناخ ما يعزز فكرته تلك بخيال مواد جديدة.

وبالعودة إلى تجربته الفنية يمكننا القول أن غسان غائب بغداد 1964 كان قد قضى زمناً طويلاً وهو مسكون بالمشاهد الطبيعية. على الأقل نظام تلك المشاهد الهندسي كما اقترحه بول سيزان. على رغم ان مساره الفني لم يشهد أي ميل إلى التشبيه. ما تستخرجه يده من سطح اللوحة هو في الحقيقة انعكاس لعملية اعادة تركيب لما رأته عيناه في أوقات سابقة. مشاهد لا تنكر خبرتها الجمالية التقليدية المتراكمة على رغم أنها تقترح علينا شروطاً جديدة للنظر. صرامة ممزوجة بحس غنائي رفيع المستوى. وكما أرى فإن هذا الرسام كان قد ألف منذ بداياته نوعاً من التدفق الحسي الذي لا يذكر بأصوله الكامنة. بالنسبة لغسان فإن الرسم يفعل ما تفعله الطبيعة بقوة الإيحاء الجمالي نفسه. وهو ايحاء حرص الرسام على أن لا يتكرر في رسومه مرتين. ليست هناك محاكاة. الأمر يتعلق بنوع حيوي من الشراكة بين ما نراه وبين ما نرسمه. الرسام هنا يمكر بحواسه التي لا تكف عن التخيل. ومن خلالها يمكر بالطبيعة.

كذلك فإن ما يفعله بخزينه الحسي هو الشيء نفسه الذي يفعله بمواد الرسم المختلفة الخاصة به. حيث لا تكف تلك المواد الغريبة عن اقتراح تقنيات تزيح السطح عن جماليات عالمه السكوني، القائم على أسس مدروسة سلفاً. تقنيات تفتح أبواباً واسعة لخيال المادة المستعملة بسبب قدرتها على الإحالة الرمزية. وهو خيال يكاد يكون مستلهماً من خيال الطبيعة، لولا قدرة الفن على صنع طبيعة مجاورة. طبيعة تحبذ أن تكون موجودة في أقصى درجات تجليها.

ولأن هذا الرسام لا يميل إلى التأمل الصوفي فقد شاء أن يراهن على ايقاع ينبعث من العلاقات المادية التي تنشأ على سطح اللوحة. تلاقيات صعبة يغلب عليها طابع الامتزاج الصارم بين المواد والأشياء والمساحات والخطوط وقبلها بين رؤى تكاد تكون متناقضة أحياناً. هذا الرسام لا ينجر وراء نزعة تهدف إلى انجاز نوع من الانسجام الجمالي بين عناصر العمل الفني يتوقع أنها ستعيق البصر عن المضي في رحلته الاستفهامية وتضر به. هناك نزعة مضادة لفكرة الشيء الجميل ولكل جمال محتمل. ما لا نتوقعه هو الذي يحدث. وهو ما يرضي رساماً قرر أن يُربك كل ايقاع نظامي يمكن أن ينبعث من داخل السطح.

في هذا المعرض تحضر الجنة باعتبارها خبرة عيش. يمكن التسلل اليها ولكن وصفها يتعذر. مشاهد تلك الجنة يمكن تخيلها بيسر من خلال وله استعراضي تقطعه أحياناً غصة ألم، هي من بقايا ذلك الأثر الذي يتركه الفراق. فهذا الرسام إذ يقع في الوصف مرغماً لا يرغب في أن تأخذه اللذائذ البصرية بعيداً من مصيره: كائناً وجد نفسه في مواجهة مصير مختلف، حتى وإن كانت الطبيعة هي مصدر كل خياراته الوجودية. لقد أحدثت تجربة العيش المباشر في بيئة قطبية تحولاً كبيراً في طريقة نظر الرسام إلى صلة الرسم بالطبيعة. صار خيال الطبيعة يسبق خيال الرسم إلى اختراع حلول جمالية ما كان الرسام يتخيل وجودها إلا على سطح اللوحة. مفهوم الإلهام نفسه قد تبدل. فالطبيعة لا تلهم فحسب بل أيضاً تجسد من خلال حيويتها الهامها. معجزات صغيرة يلتقطها الرسام ويضمها إلى خزانته الخيالية.

هو ذا إذاً أخيراً رسام عربي سعيد بسبب الطبيعة. حدث نادر فعلاً. ستكون رسومه السعيدة تلك هي وصيته المرحة: عودوا إلى الطبيعة. لقد اكتشف غسان أن الجنة ممكنة حقاً وهي خبرة عيش ليس إلا، لكن في المكان الصحيح.